سورة قٓ

هى مكية إلا آية ٣٨ فمدنية ، وعدة آيها خمس وأربعون، نزلت بعد المرسلات .

ومناسبتها لما قبلها أنه أشار فى آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ، وذلك يقتضى إنكار النبوة و إنكار البعث ، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك .

حدّث مسلم وغيره عن جابر بن سَمُرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ هذه السورة فى الركعة الأولى من صلاة الفجر .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى واقد الليثى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى العيد بقاف واقتربت » .

وأخرج أبو داود والبيهقى وابن ماجه عن أم هشام بنة حارثة قالت « ما أخذت (قٓ والقرآن المجيد) إلا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها فى المجامع الكبيرة كالعيدين والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

شرح المفردات

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب: السعة فى الكرم من قولهم: مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى كثير واسع ، وُصف به القرآن لكثرة ماتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، رجع بعيد : أى بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ماتنقص الأرض : أى ماتأكل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق : أى بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريج: أى مضطرب من قولهم: مرج الخاتم فى إصبعه إذا قلق من الهزال .

الإيضاح

(قَ) تقدم أن قلنا غير مرة إن الحروف المفردة التى جاءت فى أوائل السور حروف لتنبيه السامع إلى مايرد بعدها ، وأكثر ماجاء ذلك إذا ورد بعدها وصف القرآن كما هنا .

(والقرآن المجيد) أقسم الله سبحانه بكتابه الكثير الخير والبركة — إنك أيها الرسول لجئتهم منذرا بالبعث ، يدل على ذلك قوله تعالى « يٰسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ — إلى أن قال — لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ » .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى إنك جئتهم منذرا بالبعث فلم يقبلوا ولم يكتفوا بالشك فى أمرك وردّ رسالتك ، بل جزموا بنفيها ، وجعلوها من عجائب الأمور التى تستحق الدهشة ، وكثير التأمل والاعتبار .

ثم فسر تعجبهم وفصّل محل التعجب وهو إنذاره بالقرآن فقال :

(فقال الكافرون هذا شىء عجيب) أى فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم : هذا شىء عجيب أى إن مجىء رجل منا برسالة من الله إلينا

أمر عجيب ، هلا أنزل إلينا ملكا فيكون لنا نذيرا ، كما حكى عنهم من قولهم : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقوله حكاية عنهم « قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » .

و بعد أن أظهروا التعجب من رسالته أظهروا استبعاد ما جاء به فقالوا :

(أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع كما يقول النذير ؟ إن ذلك الرجوع بعد الموت لبعيد عن الأوهام لايصدّقه العقل وتحيله العادة .

ثم أشار إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال :

(قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) أى قد علمنا ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، و إلى أين صارت ؟ فلا يصعب علينا البعث ولا يستبعد .

ثم أكد علمه بجميع الأشياء فقال :

(وعندنا كتاب حفيظ) أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، وهذا تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعا علما كاملا بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء ، فيضبط مايعلم أتم الضبط و يحصيه أكمل الإحصاء .

ثم حكى عنهم ماهو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بلا تدبر ولا تفكر فقال :

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بل كذبوا بالنبوة التى قامت الأدلة على صدقها وأيدتها المعجزات الباهرة ، وهم إذا كذبوا بها فقد كذبوا بما أنبأ به الرسول من البعث وغيره ، ولاشك أن هذا الإنكار أعظم جُرما وأشد بلية من الإنكار بما جاء به الرسول ، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله ومن يصطفيه من خلقه من ذوى النفوس الصافية وأرباب الأرواح العالية .

(فهم فى أمر مريج) أى فهم فى قلق واضطراب ، فتارة ينفون الرسالة عن البشر،

وأخرى يزعمون أنها لاتليق إلا بأهل الجاه والرياسة كما ينبئ بهذا قولهم : « لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وثالثة يقولون: إنها سحر أو كهانة إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم :ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم التى تدل على اضطراب فى الأمر وقلق فى الفكر ، فهم لايدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذى أقض مضاجعهم ، وجعلهم حيارى دهشين ، إلام هم صائرون ؟ وإلى أى منقلب ينقلبون ؟

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) .

شرح المفردات

بنيناها : أى أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أى بالكواكب ، فروج . أى شقوق ، مددناها : أى بسطناها ، رواسى : أى جبالا ثوابت تمنعها من الميد والاضطراب ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى : أى تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع، حب الحصيد: أى حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبُرّ والشعير ، باسقات : أى طويلات ،

والطلع ماينمو ويصير بلحا ثم رطبا ثم تمرا ، ونضيد : أى منضود بعضه فوق بعض ، الخروج : أى من القبور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم استبعدوا البعث فقالوا رجع بعيد — أردف ذلك بالدليل الذى يدحض كلامهم ، فإن من خلق السماء وزينها بالكواكب ، وبسط الأرض وجعل فيها رواسى وأنبت فيها صنوف النبات ، وجعل ذلك تذكرة وتبصرة لأولى الألباب ، ونزل من السماء ماء فأنبت به ناضر الجنان ، والزرع المختلف الأصناف والألوان ، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقا لعباده ، وأحيا به الأرض الموات — أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم بعد بلاهم وبعد أن يصيروا عظاما ورفاتا ، وينشئهم خلقا آخر فى حياة أخرى وعالم غير هذا العالم ؟

الإيضاح

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى — إلى السماء فوقهم كيف رفعناها بلا عمد ، وزيناها بالكواكب وما لها من فتوق ، فهى ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، إذ يقولون إن هناك عالما لطيفا أرق من الهواء وألطف من كل مانراه وهو مبدأ كل شىء وأول كل شىء وهو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم وإن لم يره الناس فقد عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لايصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة ، ونور الشمس (التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها

لو أمكن فى نحو خمس وستين وثلثمائة سنة) يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق وثمانى عشرة ثانية .

فانظر كيف يكون بُعْد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون ؛ ألا يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود وهو الأثير فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

وهـذا مايشير إليه الكتاب بقوله : « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا .

وآراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى و بينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء ، فجاء الكتاب الكريم وعكس هذه القضية وقال لافروج فى السماء أى لاخلاء فى العالم .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى والأرض بسطناها وألقينا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ماحسن منظره ، وراق مخبره .

(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أى فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب واذكاره ، فإن رفعتُ السماء أو زينتها بالكواكب فلاستبصاره ، وإن بسطت الأرض أو أرسيتها بالجبال أو أنبتّ النبات زينة للأرض فلاعتباره .

ثم شرع يبين كيفية ماذكر من إنبات كل زوج بهيج فقال :

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد) أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد) أى وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود مترا كم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

عن قطبة قال : «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصبح ق فلما أتى على هذه الآية ـ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ـ فجعلت أقول مابسوقها ؟ قال طولها » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه .

ولم يقيد هنا العباد بالإنابة كما قيد به فى قوله : « تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » لأن التذكرة لاتكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، ومن ثم لم يخصص الرزق بقيد .

(وأحيينا به بلدة ميتاً) أى وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التى لانبات فيها فربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

ثم جعل ماسلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال :

(كذلك الخروج) أى ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور .

وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق المماثلة بين إخراج النبات و إحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

شرح المفردات

الرس : البئر التى لم تطو أى لم تبن ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكة : الغيضة الملتفة الشجر ، تبع : هو تبع الحميرى ، والعىّ

عن الأمر. العجز عنه : قال الكسائى تقول أعييت من التعب ، وعييت من العجز عن الأمر وانقطاع الحيلة ، ولبس : أى شك شديد وحيرة واختلاط .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم — أردف ذلك بذكر المكذبين للرسل من قبله و بيان ما آل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وعبرة لهم ، وتنبيها إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل ، كُذِّبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال: « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

و بعد أن ذكر دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض أعقبه بذكر دلائل الأنفس كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون و إخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) هدد سبحانه كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التى كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب ، وحق عليهم وعيد ربهم ، ونصر الله أنبياءه وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة للمتقين ، وقد تقدمت هذه القصص فى مواضع متفرقة من الكتاب الكريم .

ثم ذكر مايؤكد صحة البعث الذى أنكرته الأمم المكذبة فقال :

(أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد) أى أفأعجزنا ابتداء

الخلق حتى يشكوا فى الإعادة ؟ أى إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من الابتداء ، فلا حق لهم فى تطرق الشبهة إليهم والشك فيه ، كما قال : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال: « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وجاء فى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى يؤذينى ابن آدم يقول لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الوسوسة : الصوت الخفىّ ومنه وسواس الحلى ؛ والمراد بها هنا حديث النفس وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقعيد : بمعنى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أى مهيأ لكتابة مايؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدته ، بالحق : أى بحقيقة

الحال ، تحيد : أى تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أى يوم إنجازالوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى اللذات وقصر النظر عليها ، حديد : أى نافذ ، لزوال المانع للإبصار .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث بقوله : أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ — أردف ذلك بدليل آخر على إمكانه وهو علمه بما فى صدورهم وعدم خفاء شىء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لايبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ماجاء به الدين حق لاشك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها ، وأن الخزنة سيقولون لأهل النار : لقد كنتم فى غفلة عن حلول هذا اليوم الذى توفى كل نفس جزاء ماعملت ، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة فأبصرتم عاقبة أمركم .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) أى إنه تعالى قادر على بعث الإنسان ، لأنه خالقه وعالم بجميع أموره حتى إنه ليعلم ماتوسوس به نفسه من الخير والشر ولا عقاب على حديث النفس ، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى ماحدّثت به أنفسها مالم تقل أو تفعل » .

(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم به وبخفيات أحواله لايخفى علينا شىء من أمره ، من علمكم بحبل الوريد ، لأن العرق تحجبه أجزاء من اللحم ، وعلم الله لايحجب عنه شىء .

أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

قال القشيرى فى هذه الآية : هيبة وفزع وخوف لقوم ، ورَوح وأنس وسكون قلب لقوم .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال :

(إذ يتلقى المتلقيان) أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقن الحفيظان مايتلفظ به ، مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد ومجالس له يترصد مايقول ويعمل ، فالذى عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات .

قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك ويكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

ثم ذكر عملهما واستعدادهما لأدائه فقال :

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى لايلفظ بكلمة من فيه إلا لديه ملك حاضر معه مراقب لأعماله ، يكتب مافيه ثوابه أو عقابه .

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) يابن آدم بُسطت لك صحيفة ، ووكل به ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وروى أبو أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

والحكمة فى هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم فكل ألم فهو لرقى النفس ، والعالم المادى من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، والحسنات هى الأصل والسيئات عارضة ؛ كما أن المنافع فى الطبيعة هى الأصل والمضارّ عارضة ، فالنار خلقت لنفعه ، والماء لنفعه ، والهواء لنفعه ، فإذا أحرق ثوب الناسك ، أو أغرق رب صبية لاعائل لهم ، فهذا عارض ، والأصل فى ذلك المنافع ، وهكذا خلق نوع الإنسان للخير ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة فقال :

(وجاءت سكرة الموت بالحق) أى وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، وأن البعث لا شك فيه .

(ذلك ما كنت منه تحيد) أى ذلك الحق الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

ولما ثقل أبو بكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعَمْرُكَ ما يُغْنِي الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ

فكشف رضى الله عنه عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات » .

(ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ونفخ فى الصور نفخة البعث ، وذلك الزمان العظيم الأهوال هو اليوم الذى أوعد الله الكفار أن يعذبهم فيه .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ قالوا يارسول الله ماذا نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى وجاءت فى هذا اليوم كل نفس ربها ومعها سائق يسوقها إلى الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر .

(لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة من هذا الذى عاينت من الأهوال والشدائد ، فجلّينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته ، فزالت عنك الغفلة .

وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطى به الجسد كله ، أو غشاوة غشى بها عينيه فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر مالم يكن يبصره من الحق .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ

فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) .

شرح المفردات

القرين : هو الملك الموكل بالمرء ، عتيد : أى معدّ مُحْضر ، عنيد : أى مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مناع للخير: أى كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه،معتد : أى متجاوز للحق ظالم ، مريب: أى شاكّ فى الله وفى دينه ، القرين هنا : الشيطان المقيَّض له ، بعيد : أى من الحق ، لاتختصموا لدىّ : أى لايجادل بعضكم بعضا عندى ، بالوعيد : أى على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، مايبدل القول لدى : أى لايقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى ، مزيد : زيادة .

الإيضاح

(وقال قرينه هذا مالدىّ عتيد) أى وقال الملك الموكل به : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله .

(ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر) أى قال تعالى للسائق والشهيد : ألقيا فى جهنم كل من كفر بالله وكذب بالحق وعارضه بالباطل ، ومنع الحقوق المفروضة عليه ، واعتدى على الناس بلسانه بالبذاء والفحش ، و بيده بالسطوة والبطش ظلما ، وشك فى وحدانية الله وقدرته على مايشاء ، وأشرك به فعبد معه معبوداً سواه من خلقه .

ثم كرر ماسلف توكيداً فقال :

(فألقياه فى العذاب الشديد) أى فألقياه فى النار ذات العذاب الشديد .

(قال قرينه ربنا ما أطغيته ولـكن كان فى ضلال بعيد) أى فقال الكافر معتذرا : رب إن قرينى من الشياطين أطغانى ، فقال الشيطان المقيض له : ربنا ما أطغيته ، ولـكن كان طبعه وديدنه الضلال والبعد عن الحق ، فسار على النهج الذى يشاكل أخلاقه .

وخلاصة ذلك — إنه فى ضلال بعيد المدى لايرجع عنه إلى الحق .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » .

(قال لاتختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد) أى قال عز اسمه للإنسى وقرينه من الجن حين اختصما ، فقال الإنسى : رب إن هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وقال الشيطان : ربنا ما أطغيته ولـكن كان فى ضلال بعيد عن منهج الحق — لاتختصموا عندى ، فقد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل وأنزلت الـكتب، وقامت عليكم الحجج .

والخلاصة — إنهم اعتذروا بغير مايصلح أن يكون عذرا ، فأبطل الله حجتهم وردّ عليهم قولهم .

(مايبدل القول لدىّ) أى لايغيّر قضائى الذى قضيته ، ووعيدى الذى أوعدته بتخليد الـكفار فى النار ومجازاة العصاة على قدر مايستحقون .

(وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب أحدا بغير جُرم اجترمه ، ولا ذنب جناه ، ولا أعذب أحدا مكان أحد .

ثم ذكر مكان حلول الوعيد فقال :

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) أى وأنذر قومك يوم نقول لجهنم هل امتلأت بما ألقى إليك فوجا بعد فوج ؟ فتقول لامزيد بعد ذلك .

وفى هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها ، يطرح فيها من الجِنَّة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة .

وهـذا السؤال والجواب جيء بهما للتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه فى لباس المحسوس ليتضح أمره .

روى عن ابن عباس أنه قال : سبقت كلمته : لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول : ألست قد أقسمتَ لتملأنّى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول : هل امتلأتِ ؟ فتقول : قَطْ قَطْ (كفى كفى) قد امتلأت وليس من مزيد .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

شرح المفردات

أزلفت : أى أدنيت وقُرّبت ، غير بعيد : أى فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم ومسمع ، هذا ماتوعدون : أى هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل ، أوّاب : أى رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أى حافظ لحدود الله وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أى خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لايراه أحد ، منيب : أى مخلص مقبل على طاعة الله ، بسـلام : أى سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أى فى الجنة إذ لاموت فيها ، مزيد : أى مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر وردّ القرين عليه ، وأن الله سبحانه نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لافائدة فيه بعد أن أوعدهم على ألسنة رسله — أردف هذا بذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم ، وتثلج لمرآها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الأنبياء والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل مايريدون من لذة ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

الإيضاح

(وأزلفت الجنة غير بعيد) أى وأدنيت الجنة للذين اتقوا ربهم واجتنبوا معاصيه ، بحيث تكون بمرأى العين منهم ، إكراما لهم ، واطمئنانا لنفوسهم ، فيرون ما أعدّ لهم من نعيم وحبور ، ولذة وسرور ، لانفاد له ولا فناء .

(هذا ماتوعدون) أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم على ألسنة رسله ، وجاءت به كتبه ، ثم بين المستحق لهذا النعيم فقال :

(لكل أوّاب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أى هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب منيبة إليه ، خاضعة له .

(ادخلوها بسلام) أى وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

ثم يبشَّرُون ويقال لهم :

(ذلك يوم الخلود) أى فاطمئنوا وقرّوا عينا ، فهذا يوم الخلود الذى لاموت بعده ، ولا ظعن ولا رحيل .

ثم زاد فى البشرى فقال :

(لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) أى لهم إجابة لسؤلهم كل مايشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

شرح المفردات

القرن : الجيل من الناس ، بطشاً : أى قوة ، فنقبوا فى البلاد : أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طوّف فى الأرض نقّب فيها .

قال امرؤ القيس :

فقد نقّبتُ فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

محيص : أى مهرب ، لذكرى : أى لعبرة ، قلب : أى لُبٌّ يعى به ، أو ألقى السمع : أى أصغى إلى مايتلى عليه من الوحى ، شهيد : أى حاضر فهو من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به الفطن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أى تعب ، سبح بحمد ربك : أى نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أى أعقاب الصلوات ، واحدها دبر (بضم فسكون و بضمتين) واستمع : أى لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، يوم ينادى المنادى : أى يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى ، من مكان قريب : أى بحيث لايخفى الصوت على أحد ، والمنادى هو جبريل عليه السلام على ماورد فى الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزّقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، والصيحة : النفخة الثانية. بالحق : أى بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أى من القبور ، تشقق : أى تتصدع ، بجبار : أى بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر .

المعنى الجملى

بعد أن أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أنذرهم بما يعجل لهم فى الدنيا من ضروب العذاب ، سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ممن ساروا فى البلاد طولا وعرضا وكانوا ذوى قوة وأيْد ، ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا ، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لبّ واعٍ سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض فى ستة أطوار مختلفة وما أصابه تعب ولا لغوب كما قال : « أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ » ثم أمره بالصبر على مايقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فهاهو ذا اقترب يوم البعث والنشور ، وسمع صوت الداعى لذلك بعد النفخ فى الصور ، وتشققت

الأرض سراعا وخرج الناس من القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، وإنا لنعلم مايقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيّهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم ، وما فيه من هول، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع العظة إلا ذوى الأحلام الراجحة ، والقلوب الواعية .

الإيضاح

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟) أى وكثير من الأمم التى قبلك أهلكناهم وكانوا أشد منهم بطشا وأكثر قوة كعاد وثمود وتبّع ، فتقلبوا فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق ولم يجدوا لهم من أمر الله مهربا ولا ملجأ حين حُمَّ القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذارِ أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

وبعد أن ذكر فى هذه السورة وما قبلها بارع الحكم ونفائس المعارف الإلهية جملة وتفصيلا ، فمن أدب للأمة مع نبيّها ، إلى أدب للأمة بعضها مع بعض ، إلى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم ، وصيانة اللسان من الهزؤ والسخرية والهمز واللمز ، ثم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وبذا يحل التواصل محل التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، ويخيم الأمن فى ربوع البلاد ، أبان أن تلك الزواجر لاينتفع بها إلا ذوو الألباب فقال :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى مايقال له .

ثم أعقب ذلك بذكر ماهو كالدليل على ماسلف فقال :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى قسما بربك إنا خلقنا السموات والأرض وملأناهما بالعجائب فى ستة أطوار مختلفة

وما مسنا تعب ولا إعياء ، ولا تزال عجائبنا تترى كل يوم ، فانظروا إليها وتأملوا فى محاسنها فهى لاتحصى ، ولا يبلغها الاستقصا ، وكذّبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ولا إعياء .

ونحو الآية قوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

(فاصبر على مايقولون) أى فاصبر على مايقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل التى لامستند لها إلا الاستبعاد ، فإن من خلق العالم فى تلك المدة اليسيرة بلا إعياء — قادر على بعثهم وجزائهم على ماقدموا من الحسنات والسيئات .

(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) أى ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه ، حامداً له أنعمه عليك ، وقت الفجر ووقت العصر و بعض الليل ، وفى أعقاب الصلوات .

وقال ابن عباس : الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب الظهر والعصر ، ومن الليل العشاءان ، وأدبار السجود النوافل بعد الفرائض .

روى البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها ، يعنى قوله : « وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » وفى حديث مسلم تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين ، والتحميد بثلاث وثلاثين ، والتكبير بثلاث وثلاثين ، وتمام المائة لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى و يميت وهو على كل شىء قدير ، دُبُر كل صلاة .

(واستمع) أيها الرسول لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى إبهام أمره ، تعظيم لشأنه .

ثم بين ذلك الخبر وزمانه بقوله :

(يوم ينادى المنادى من مكان قريب) أى يوم ينادى المنادى من موضع قريب

فيصل نداؤه إلى كل الخلائق على السوية ، ويقول : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم ويقبلون كأنهم جراد منتشر .

ثم زاد الأمر تفصيلا فقال :

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) أى يوم يسمعون النفخة الثانية منذرة بالبعث والجزاء على ماقدموا من الأعمال .

ثم ذكر مايقال لهم حينئذ فقال :

(ذلك يوم الخروج) أى هذا اليوم هو يوم الخروج من القبور .

ثم لخص ماتقدم من أول السورة إلى هنا فقال :

(إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) أى إنا نحن نحيى فى الدنيا ونميت فيها حين انقضاء الآجال ، وإلينا الرجوع للحساب والجزاء فى الآخرة .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) أى إلينا المصير فى ذلك اليوم الذى تتصدع فيه الأرض فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة ، وذلك جمع هين علينا لاعسر فيه ولا مشقة .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(نحن أعلم بما يقولون) أى نحن أعلم بما يقولون من فريتهم على ربهم وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت .

(وما أنت عليهم بجبار) أى وما أنت بمسلط عليهم تقسرهم على الإيمان وتسيرهم على ماتهوى وتريد ، إنما أنت نذير ، وما عليك إلا التبليغ وعلينا الحساب .

ثم أكد أنه مذكر لامسيطر وأن التذكير لاينفع إلا من خشى ربه فقال :

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذى أنزلته عليك من يخاف وعيدى الذى أوعدته من عصانى وخالف أمرى ، أى بلغ رسالة ربك ، وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه .

ونحو الآية قوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ »
وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا برُّ يا رحيم .

موجز لما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إنكار المشركين للنبوة والبعث .
(٢) الحث على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، وأمطارها الثجّاجات .
(٣) العبرة بالدول الهالكات كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وما استحقوا من وعيد وعذاب .
(٤) تقريع الإنسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجلس أنسه ، وعند إخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على كل قول وكل عمل ، وشهدت عليه الشهود وكُشفت له الحجب
(٥) إنه ماخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .
(٦) إن القرآن عظة وذكرى لمن كان له قلب واعٍ يستمع مايلقى إليه .
(٧) تسلية رسوله على مايقول المشركون من إنكار البعث وتهديدهم على ذلك .
(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .
(٩) أمر الرسول بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .